(٣١)

باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]

قال المصنف رحمه الله تعالى: (**باب قول الله تعالى**: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]) .

ش: الخوف من أفضل مقامات الدين وأجلها، وأجمع أنواع العبادة التي يجب إخلاصها لله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠] **وقال تعالى**: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمٰن: ٤٦] **وقال تعالى**: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨] **وقال تعالى**: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠] **وقال تعالى**: ﴿فَلَا تَخْشَوُا ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤] **وأمثال هذه الآيات في القرآن كثير.**

والخوف من حيث هو على ثلاثة أقسام:

أحدها: خوف السر، وهو أن يخاف من غير الله، من وثن أو طاغوت أن يصيبه بما يكره، كما قال تعالى عن قوم هود عليه السلام إنهم قالوا له: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٤-٥٥] **وقال تعالى**: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: ٣٦]، وهذا هو الواقع من عُبّاد القبور ونحوها من الأوثان يخافونها، ويخوِّفون بها أهل التوحيد إذا أنكروا عبادتها وأمروا بإخلاص العبادة لله، وهذا ينافي التوحيد.

الثاني: أن يترك الإنسان ما يجب عليه، خوفًا من بعض الناس، فهذا محرم وهو نوع من الشرك بالله المنافي لكمال التوحيد. وهذا هو سبب نزول هذه الآية. كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝١٧٣ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ۝١٧٤ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٥].

وفي الحديث: «**إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ما منعك إذ رأيتَ المنكر أن لا تغيره؟ فيقول: رب خشيتُ الناس. فيقول: إياي كنت أحق أن تخشى**»[1].

---

(١) أخرجه ابن ماجه، كتاب: الفتن، باب: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حديث (٤٠٠٨)، وأحمد في

obeikandl.com

الثالث: الخوف الطبيعي، وهو الخوف من عدو أو سبع أو غير ذلك. فهذا لا يذم. كما قال تعالى في قصة موسى عليه السلام: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١].

ومعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٧٥] أي: يخوِّفكم أولياءه ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥] وهذا نهيٌ من الله تعالى للمؤمنين أن يخافوا غيره، وأمر لهم أن يقصروا خوفهم على الله تعالى، فلا يخافون إلا إياه.

وهذا هو الإخلاص الذي أمر به عباده، ورضيه منهم. فإذا أخلصوا له الخوف وجميع العبادة، أعطاهم ما يرجون، وأمنهم من مخاوف الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٣٦].

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: ومن كيد عدو الله: أنه يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه، لئلا يجاهدوهم، ولا يأمروهم بمعروف، ولا ينهوهم عن منكر. وأخبر تعالى أن هذا من كيد الشيطان وتخويفه. ونهانا أن نخافهم.

قال: والمعنى عند جميع المفسرين: يخوفكم بأوليائه.

قال قتادة: يعظمهم في صدوركم. فكلما قوى إيمان العبد زال خوف أولياء الشيطان من قلبه، وكلما ضعف إيمانه قوي خوفه منهم. فدلت هذه الآية على أن إخلاص الخوف من كمال شروط الإيمان.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨]).

ش: أخبر تعالى أن مساجد الله لا يعمرها إلا أهل الإيمان بالله واليوم الآخر، الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا بجوارحهم، وأخلصوا له الخشية دون من سواه.

فأثبت لهم عمارة المساجد بعد أن نفاها عن المشركين؛ لأن عمارة المساجد بالطاعة والعمل الصالح، والمشرك وإن عمل فعمله: ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ

مسنده (٣/ ٤٧)، حديث (١١٤٥٨)، وعبد بن حميد في مسنده ص (٣٠٠)، حديث (٩٧١)، والبيهقي في الشعب (٦/ ٩٠)، حديث (٧٥٧١) من طريق الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي البختري عن أبي سعيد مرفوعًا وأبو البختري قال فيه ابن أبي حاتم: «لم يدرك أبا ذر، ولا أبا سعيد. . .»، وقال ابن سعد: «فما كان من حديثه سماعًا فهو حسن، وما كان غيره فهو ضعيف»، وانظر ضعيف الجامع (٦٣٣٢)، ضعيف الترغيب (١٣٨٧).

لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩] أو ﴿كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨] وما كان كذلك فالعدم خير منه، فلا تكون المساجد عامرة إلا بالإيمان الذي معظمه التوحيد مع العمل الصالح الخالص من شوائب الشرك والبدع، وذلك كله داخل في مسمى الإيمان المطلق عند أهل السنة والإجماع.

قوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨] قال ابن عطية: يريد خشية التعظيم والعبادة والطاعة، ولا محالة أن الإنسان يخشى المحاذير الدنيوية، وينبغي أن يخشى في ذلك كله قضاء الله وتصريفه.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: الخوف عبودية القلب. فلا يصلح إلا لله، كالذل والإنابة والمحبة والتوكل والرجاء وغيرها من عبودية القلب.

قوله: ﴿فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨] قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: يقول: إن أولئك هم المهتدون، وكل ﴿عسى﴾ في القرآن فهي واجبة.

وفي الحديث: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [التوبة: ١٨]» [1] رواه أحمد والترمذي والحاكم.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠]).

ش: قال ابن كثير رحمه الله تعالى: يقول تعالى مخبرًا عن صفات قوم من المكذبين الذين يدَّعون الإيمان بألسنتهم، ولم يثبت في قلوبهم: إنهم إذا جاءتهم محنة وفتنة في الدنيا اعتقدوا أنها من نقمة الله بهم، فارتدوا عن الإسلام. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني فتنته أن يرتد عن دينه إذا أوذي في الله.

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: الناس إذا أرسل إليهم الرسل بين أمرين: إما أن يقول

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: الإيمان، باب: ما جاء في حرمة الصلاة، حديث (٢٦١٧)، وابن ماجه، حديث (٨٠٢)، وأحمد في مسنده (٣/ ٦٨)، حديث (١١٦٦٩)، والحاكم في المستدرك (١/ ٣٣٢)، حديث (٧٧٠)، وسعيد بن منصور في سننه (٥/ ٢٤٢)، حديث (١٠١٠) من طريق دراج أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري به مرفوعًا. ودراج هذا قال الحافظ في التقريب: «صدوق، في حديثه عن أبي الهيثم ضعف» قلت: وهذا منها. وانظر ضعيف الجامع (٥٠٩)، ضعيف الترغيب (٢٠٣)، تمام المنة ص (٢٩١).

أحدهم: آمنا، وإما أن لا يقول ذلك. بل يستمر على السيئات والكفر، فمن قال: آمنا امتحنه ربه وابتلاه وفتنه. والفتنة: الابتلاء والاختبار، ليتبين الصادق من الكاذب، ومن لم يقل: آمنا، فلا يحسب أنه يعجز الله ويفوته ويسبقه.

فمن آمن بالرسل وأطاعهم عاداه أعداؤهم وآذوه وابتلى بما يؤلمه، ومن لم يؤمن بهم ولم يطعهم عوقب في الدنيا والآخرة وحصل له ما يؤلمه، وكان هذا الألم أعظم وأدوم من ألم أتباعهم.

فلا بد من حصول الألم لكل نفس، آمنت أو رغبت عن الإيمان، لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداء ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة.

والمعرض عن الإيمان تحصل له اللذة ابتداء ثم يصير في الألم الدائم.

والإنسان لا بد أن يعيش مع الناس، والناس لهم إرادات وتصورات، فيطلبون منه أن يوافقهم عليها، وإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه، وإن وافقهم حصل له العذاب تارة منهم وتارة من غيرهم.

كمن عنده دين وتقي حل بين قوم فجار ظلمة لا يتمكنون من فجورهم وظلمهم إلا بموافقته لهم أو سكوته عنهم، فإن وافقهم أو سكت عنهم سلم من شرهم في الابتداء، ثم يتسلطون عليه بالإهانة والأذى أضعاف ما كان يخافه ابتداء لو أنكر عليهم وخالفهم، وإن سلم منهم فلا بد أن يهان ويعاقب على يد غيرهم.

فالحزم كل الحزم بما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لمعاوية رضي الله عنه: **«من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مئونة الناس. ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئًا»** [(١)].

فمن هداه الله وألهمه رشده ووقاه الله شر نفسه امتنع من الموافقة على فعل المحرم وصبر على عداوتهم، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة، كما كانت للرسل وأتباعهم.

ثم أخبر تعالى عن حال الداخل في الإيمان بلا بصيرة وأنه إذا أوذي في الله جعل فتنة الناس له، وهي أذاهم ونيلهم إياه بالمكروه، وهو الألم الذي لا بد أن ينال الرسل وأتباعهم ممن خالفهم، جعل ذلك في فراره منه وتركه السبب الذي يناله به: كعذاب الله الذي فر منه

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: الزهد، حديث (٢٤١٤)، وابن حبان في صحيحه (١/ ٥١٠)، حديث (٢٧٦)، عن عائشة مرفوعًا. وأخرجه الترمذي (٢٤١٤) عنها موقوفًا وهو حديث صحيح، وانظر صحيح الترغيب (٢٢٥٠)، صحيح الجامع (٦٠١٠، ٦٠٩٧)، تخريج الطحاوية ص (٣٠٤).

المؤمنون بالإيمان.

فالمؤمنون لكمال بصيرتهم فروا من ألم عذاب الله إلى الإيمان، وتحملوا ما فيه من الألم الزائل المفارق عن قرب.

وهذا لضعف بصيرته فر من ألم أعداء الرسل إلى موافقتهم ومتابعتهم، ففر من ألم عذابهم إلى ألم عذاب الله. فجعل ألم فتنة الناس في الفرار منه بمنزلة عذاب الله. وغبن كل الغبن إذ استجار من الرمضاء بالنار. وفر من ألم ساعة إلى ألم الأبد، وإذا نصر الله جنده وأولياءه قال: إني كنت معكم، والله أعلم بما انطوى عليه صدره من النفاق. انتهى.

وفي الآية رد على المرجئة [١] والكرَّامية [٢]، ووجهه: أنه لم ينفع هؤلاء قولهم: آمنا بالله، مع عدم صبرهم على أذى من عاداهم في الله، فلا ينفع القول والتصديق بدون العمل. فلا يصدق الإيمان الشرعي على الإنسان إلا باجتماع الثلاثة: التصديق بالقلب وعمله، والقول باللسان، والعمل بالأركان. وهذا قول أهل السنة والجماعة سلفًا وخلفًا، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفيه الخوف من مداهنة الخلق في الحق. والمعصوم من عصمه الله.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (عن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعًا: «إن من ضعف اليقين أن ترضى الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على رزق الله، وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله، إن رزق الله لا يجره حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره») [٣].

---

(١) كلمة المرجئة مأخوذة من أرجأ بمعنى أمهل وأخَّر، والإرجاء هو التأخير، يقال: أرجيته وأرجأته إذا أخرته. وعليه فقد سموا المرجئة بهذا الاسم: (إما) لأنهم أخروا العمل عن مسمى الإيمان. و(إما) لأنهم أخروا الحكم على العصاة، وأرجأوا أمرهم إلى يوم القيامة. والبعض يشتق اسمهم من أرجأ بمعنى بعث الرجاء، أي: أنهم يؤملون العصاة ويبعثون الرجاء في نفوسهم، وهذا بعيد. انظر: الفرق بين الفرق ص (٢٢٧).

(٢) الكرامية: هم أتباع محمد بن كرام، الذين يقولون: إن الإيمان هو مجرد التصديق في الظاهر، فإذا فعل ذلك كان مؤمنًا، وإن كان مكذِّبًا في الباطن، وسلموا أنه معذب مخلد في الآخرة. فنازعوا في اسمه لا في حكمه، ومن الناس من يحكي عنهم أنهم جعلوهم من أهل الجنة، وهو غلط عليهم، ومع هذا فتسميتهم له مؤمنًا بدعة ابتدعوها مخالفة للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة؛ وهذه البدعة الشنعاء هي التي انفرد بها الكرامية دون سائر المقالات. انظر مجمع الفتاوى (٧/ ٤٧٥- ٤٧٦).

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٥/ ١٠٦)، والبيهقي في الشعب (١/ ٢٢١)، حديث (٢٠٧) من طريق أبي عبد الرحمن السدي عن عمرو بن قيس عن عطية العوفي عن أبي سعيد به. وفي الإسناد أبي عبد الرحمن السدى واسمه محمد بن مروان وهو متهم بالوضع، وعطية العوفي ضعيف. وانظر ضعيف الجامع (٢٠٠٩)، الضعيفة (١٤٨٢).

ش: هذا الحديث رواه أبو نعيم في الحلية والبيهقي، وأعله بمحمد بن مروان السدى وقال: ضعيف، وفي إسناده أيضًا: عطية العوفي، ذكره الذهبي في (الضعفاء). وموسى بن بلال، قال الأزدي: ساقط.

وتمام الحديث: «**وإن الله بحكمته جعل الروح والفرح في الرضى واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط**».

قوله: (إن من ضعف اليقين) الضعف يضم ويحرك، ضد القوة، ضعُف ككرم ونصر، ضعفًا، وضعفة، وضعافية، فهو ضعيف وضعوف وضعفان، والجمع: ضعاف وضعفاء وضعفة وضَعَفى وضعافى.

أو الضعف - بالفتح - في الرأي وبالضم في البدن، فهي ضعيفة وضعوف. و«**اليقين**» المراد به الإيمان كله، كما قال ابن مسعود: «**اليقين الإيمان كله، والصبر نصف الإيمان**» [(١)] رواه الطبراني بسند صحيح، رواه أبو نعيم فى الحلية، والبيهقي في الزهد من حديثه مرفوعًا.

قال: ويدخل في ذلك تحقيق الإيمان بالقدر السابق، كما في حديث ابن عباس مرفوعًا: «**فإن استطعت أن تعمل بالرضى في اليقين فافعل، فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا**» [(٢)] وفي رواية: قلت: يا رسول الله كيف أصنع باليقين؟ قال: «**أن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك**» [(٣)].

قوله: (أن ترضى الناس بسخط الله) أي: تؤثر رضاهم على رضى الله، بأن توافقهم

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٩/ ١٠٤)، حديث (٨٥٤٤)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٨٤)، حديث (٣٦٦٦)، والبيهقي في الشعب (١/ ٧٤)، حديث (٤٨) عن عبد الله بن مسعود موقوفًا. وهو صحيح، وانظر صحيح الترغيب (٣٣٩٧). وأخرجه البيهقي في الزهد (٢/ ٣٦١)، حديث (٩٨٤)، والشعب (٧/ ١٢٣)، حديث (٩٧١٦)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٨١٥)، حديث (١٣٦٤)من طريق يعقوب بن حميد عن محمد بن خالد المخزومي عن عبد الله بن مسعود مرفوعًا وقال ابن الجوزي: «تفرد بروايته محمد بن خالد عن الثوري، ومحمد بن خالد مجروح. وقال يحيى والنسائي: يعقوب بن حميد ليس بشيء» وانظر ضعيف الجامع (٣٥٣٦)، الضعيفة (٤٩٩).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٦٢٣)، حديث (٦٣٠٣)، والبيهقي في الشعب (٧/ ٢٠٣)، حديث (١٠٠٠٠)، وهناد في الزهد (١/ ٣٠٤)، حديث (٥٣٦) وهو ضعيف، وانظر الضعيفة (٥١٠٨).

(٣) لم أجده بهذه الزيادة؛ ولهذا الفقرة شاهد من حديث زيد بن ثابت أخرجه أبو داود، كتاب: السنة، باب: في القدر، حديث (٤٦٩٩)، وابن ماجه، حديث (٧٧). وهو صحيح، وانظر صحيح الجامع (٥٢٤٤)، المشكاة (١١٥).

على ترك ما أمر الله به، وفعل ما نهى عنه، استجلابًا لرضاهم.

وهذا ينافي قوة اليقين، وكمال الإيمان في إيثار ما يُرضي الله على ما تهواه النفوس، والصبر على مخالفة هواها، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩].

وذلك إذا لم يقم بقلبه من إعظام الله وإجلاله وهيبته ما يمنعه من استجلاب رضى المخلوق بما يجلب له سخط خالقه وربه ومليكه، الذي يتصرف في القلوب ويفرج الكروب ويغفر الذنوب.

وبهذا الاعتبار يدخل في نوع من الشرك؛ لأنه آثر رضى المخلوق على رضى الله. وتقرب إليه بما يسخط الله. ولا يسلم من هذا إلا من سلمه الله. ووفقه لمعرفته ومعرفة ما يجوز على الله من إثبات صفاته على ما يليق بجلاله، وتنزيهه تعالى عن كل ما ينافي كماله، ومعرفة توحيده في ربوبيته وإلهيته وبالله التوفيق.

قوله: (وأن تحمدهم على رزق الله) أي على ما وصل إليك من أيديهم، بأن تضيفه إليهم وتحمدهم عليه. فإن المتفضل في الحقيقة هو الله وحده الذي قدره لك وأوصله إليك، وإذا أراد أمرًا قيض له أسبابًا.

ولا ينافي هذا حديث: **«من لا يشكر الناس لا يشكر الله»** [(١)] لأن شكرهم إنما هو بالدعاء لهم لكون الله ساقه على أيديهم فتدعو لهم أو تكافئهم، لحديث: **«من صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه»** [(٢)]. فإضافة الصنيعة إليهم لكونهم صاروا سببًا في إيصال المعروف إليك، والذي قدره وساقه هو الله وحده.

قوله: (وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله) لأنه لم يقدر لك ما طلبته على أيديهم، فلو قدره لك لساقته المقادير إليك. فمن علم أن المتفرد بالعطاء والمنع هو الله وحده وأنه هو

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب: الأدب، باب: في شكر المعروف، حديث (٤٨١١)، والترمذي، حديث (١٩٥٤)، من حديث أبي هريرة. وهو صحيح، وانظر صحيح الجامع (٦٦٠١، ٧٧١٩)، صحيح الجامع (٩٧٣).

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب: الزكاة، باب: عطية من سأل بالله، حديث (١٦٧٢)، والنسائي، حديث (٢٥٦٧)، وأحمد في مسنده (٢/ ٦٨)، حديث (٥٣٦٥) من حديث ابن عمر، وهو صحيح، وانظر صحيح الجامع (٦٠٢١)، الإرواء (١٦١٧)، صحيح الترغيب (٨٥٢)، الصحيحة (٢٥٤).

الذي يرزق العبد بسبب وبلا سبب، ومن حيث لا يحتسب، لم يمدح مخلوقًا على رزق ولم يذمه على منع، ويفوض أمره إلى الله، ويعتمد عليه في أمر دينه ودنياه.

وقد قرر النبي هذا المعنى بقوله في الحديث: **«إن رزق الله لا يجره حرص حريص ولا يرده كراهية كاره»** كما قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: اليقين يتضمن اليقين في القيام بأمر الله وما وعد الله أهل طاعته، ويتضمن اليقين بقدر الله وخلقه وتدبيره، فإذا أرضيتهم بسخط الله لم تكن موقنًا لا بوعده ولا برزقه، فإنه إنما يحمل الإنسان على ذلك: إما ميل إلى ما في أيديهم فيترك القيام فيهم بأمر الله لما يرجوه منهم، وإما ضعف تصديقه بما وعد الله أهل طاعته من النصر والتأييد والثواب في الدنيا والآخرة. فإنك إذا أرضيت الله نصرك ورزقك وكفاك مئونتهم.

وإرضاؤهم بما يسخطه إنما يكون خوفًا منهم ورجاءً لهم وذلك من ضعف اليقين. وإذا لم يقدر لك ما تظن أنهم يفعلونه معك فالأمر في ذلك إلى الله لا لهم. فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فإذا ذممتهم على ما لم يقدر كان ذلك من ضعف يقينك.

فلا تخفهم ولا ترجهم ولا تذمهم من جهة نفسك وهواك، ولكن من حَمِدَه الله ورسوله منهم فهو المحمود، ومن ذمه الله ورسوله منهم فهو المذموم.

ولما قال بعض وفد بني تميم: أي محمد أعطني. **فإن حمدي زين وذمي شين، قال** النبي ﷺ: **«ذاك الله»** [1] انتهى.

ودل الحديث على أن الإيمان يزيد وينقص وأن الأعمال من مسمى الإيمان.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس» [2] **رواه ابن حبان في صحيحه).**

ش: هذا الحديث رواه ابن حبان بهذا اللفظ، ورواه الترمذي عن رجل من أهل المدينة قال: كتب معاوية رضي الله عنه إلى عائشة رضي الله عنها: أن اكتبي لي كتابًا توصيني

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الحجرات، حديث (٣٢٦٧)، والطبري في تفسيره (٢٦/ ١٢١) وهو صحيح، وانظر صحيح الترمذي.

(٢) تقدم قبل صفحات، وهو صحيح.

فيه، ولا تكثري علي، فكتبت عائشة رضي الله عنها: إلى معاوية: سلام عليك، أما بعد: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مئونة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس. والسلام عليك**» ورواه أبو نعيم في الحلية.

قوله: (من التمس) أي طلب.

قال شيخ الإسلام: وكتبت عائشة إلى معاوية، وروي أنها رفعته: «**من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مئونة الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئًا**» هذا لفظ المرفوع.

ولفظ الموقوف: «**من أرضى الله بسخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله عاد حامده من الناس له ذامًا**».

وهذا من أعظم الفقه في الدين فإن من أرضى الله بسخطهم كان قد اتقاه وكان عبده الصالح، والله يتولى الصالحين، والله كاف عبده: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]. والله يكفيه مؤنة الناس بلا ريب.

وأما كون الناس كلهم يرضون عنه فقد لا يحصل ذلك، لكن يرضون عنه إذا سلموا من الأغراض وإذا تبين لهم العاقبة. ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئًا كالظالم الذي يعض على يديه.

وأما كون حامده ينقلب ذامًا، فهذا يقع كثيرًا ويحصل في العاقبة. فإن العاقبة للتقوى لا تحصل ابتداء عند أهوائهم. انتهى.

وقد أحسن من قال:

إذا صح منك الود يا غاية المنى ... فكل الذي فوق التراب تراب

قال ابن رجب رحمه الله: فمن تحقق أن كل مخلوق فوق التراب فهو تراب فكيف يقدم طاعة من هو تراب على طاعة رب الأرباب؟ أم كيف يرضى التراب بسخط الملك الوهاب؟ إن هذا لشيء عجاب.

وفي الحديث: عقوبة من خاف الناس وآثر رضاهم على الله، وأن العقوبة قد تكون في الدين. عياذًا بالله من ذلك. كما قال تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٧].